

طباعة المصحف بين فيلولوجيا الاستشراق وعلم القراءات: موازنة بين مصحف فلوجل 1834 ومصحف الأزهر 1924

■ إسلام دية

ما انفك دارسو القرآن الكريم من الغربيين يعتمدون إلى حوالى ثلاثينات القرن العشرين الميلادي، على النسخة التي أشرف على إعدادها وطباعتها المستشرق الألماني الشهير غوستاف فلوجل (1870 - 1802) Gustav Flügel، والتي أسماها Corani Textus Arabicus؛ أي: نصّ القرآن العربي - تمييزاً له عن الترجمات التي كانت شائعة - ونشرها عام 1834. وقد كان معظم العلماء والباحثين الغربيين يرجعون إلى نسخة فلوجل لعقود طويلة؛ معدنيها النسخة العلمية التي لا غنى عنها، إلى أن ظهرت طبعة أخرى للمصحف في عامي 1923 و 1924، وهي الطبعة المصرية، المعروفة بمصحف الملك فؤاد، والتي أشرف عليها مجموعة من علماء مصر المتخصصين في القرآن وعلومه، اعتمدوا فيها على تراث علم القراءات.

تسعى هذا الدراسة إلى عقد مقارنة بين طبعة فلوجل والطبعة المصرية المتداولة اليوم. ما الذي ميّز كل طبعة عن الأخرى؟ ما السياقات العلمية والفكرية التي خرجت فيها كل طبعة؟ وما أثر هذه السياقات في الإخراج النهائي للنصّ؟ وأخيراً، كيف نجحت الطبعة

■ جامعة برلين الحرة - ألمانيا.

المصرية في الحصول على الاعتراف والقبول ليس بين العلماء المسلمين فحسب؛ بل بين الدارسين من الغرب الذين فضلوا على طبعة فلوجل.

طبعة فلوجل عام 1834

من بين الطبعات الكثيرة للمصحف التي طبعت في أوروبا تتبوا طبعة المستشرق الألماني فلوجل، المعروفة بـ the Flügel edition المكانة العليا¹. ظهرت طبعته أول مرة في عام 1834 ثم تلتها عدة طبعات في 1855، 1867، 1870، 1883، 1891، 1893. في مقدمته، يعترف فلوجل للمستشرق الألماني أبراهام هنكلمن Abraham Hinckelman بالسبق في طباعة أول مصحف في أوروبا والمنشور بمدينة هامبورغ في عام 1694، وأخرجها بالاعتماد على مخطوطات قرآنية عديدة. بالإضافة إلى اعتماده على طبعة هنكلمن، رجع فلوجل إلى العديد من التفاسير القرآنية التي كانت متداولة وقتئذٍ، لا سيما تفسير الزمخشري، والبيضاوي وأبي السعود². أشرف فلوجل على إصدار طبعتين عام 1841 و1858، بمراجعة منه، بالإضافة إلى طبعة سنة 1842 ملحقة بفهرس للآيات ما زال متداولاً حتى اليوم.

وتعاون فلوجل مع أحد أبرز المبتكرين في مجال الطباعة وقتئذٍ، وهو كارل كرسنوف تاوخنز (1836 - 1761) Karl Christoph Tauchnitz؛ الذي كان يعمل في مدينة لايبزغ الألمانية Leipzig³. وكان تاوخنز يشتهر باهتمامه بطباعة أصول الأدب اليوناني والروماني بشكل جيد، خال من الأخطاء وبأسعار زهيدة، واهتم أيضاً بنشر طبعات ممتازة وثمانية Prachtdrucke ليس في مقدور الجميع اقتناؤها. ومن أهم جهود تاوخنز: محاولاته في تطوير خط مناسب لطباعة القرآن الكريم الذي أنجزه مع غوستاف فلوجل في عام 1834. وقد اعتمد في

1- واسمها الكامل باللاتينية: «Corani Textus Arabicus, Ad Fidem Liborum, Manu Scriptorum et Impressorum, et ad, Praecipuorum Interpretum Lectiones, et Suratarum, Addidit Gustavus Flügel».

2- Flügel, Gustav, *Corani Textus Arabicus*, Leipzig, 1883, IIV-VII.

3- Lorck, Carl B., *Handbuch der Geschichte der Buchdruckerkunst*, Vol. II, Leipzig, 1883, pp.337-8.

هذا العمل على الخطوط التي ابتكرها المستشرق أنطون فون هامر Anton von Hammer والذي اعتمد بدوره على الخطوط التي ابتكرها المستشرق جوزيف فون هامر بورغشتال Josph von Hammer Purgstall¹. ورغم جهوده المهمة في تطوير خط مناسب لطباعة الحرف العربي؛ إلا أن محاولات تاوختز لم ترق إلى مستوى أعماله المطبعية الأخرى التي اشتهر بها. فقد سجّل لنا معاصره كارل لورك Carl Lorck في كتابه المهم «المرجع في تاريخ الطباعة» Handbuch der Geschichte der Buchdruckerkunst، الذي نشر في مدينة لايبزيغ في 1882-1883، ملاحظات عدد من المبشرين الأمريكيان على طبعة فلوجل -

من بين الطبعات الكثيرة
للمصحف التي طبعت في
أوروبا تتبوأ طبعة
المستشرق الألماني
فلوجل، المعروفة
بـ Flügel edition
المكانة العليا.

تاوختز إثر زيارتهم للمطبعة في أواخر القرن التاسع عشر. يقول لورك: «تلبيةً لطلب المبشرين الأمريكيان في سورية، تم قطع حرف عربي جديد مناسب لذوق المشرقيين»².

يبدو أن كارل لورك يشير هنا إلى الحرف الذي كان يسمى حينها بـ «الحرف العربي الأمريكي» American Arabic Font والذي ابتكره عدد من المبشرين والمستشرقين العاملين في سورية؛ بل تظهر بعض الدراسات الحديثة أن هذا

الحرف تمّ اختراعه في مدينة لايبزيغ³. السؤال الذي ينبغي طرحه في هذا السياق هو التالي: بما أن مطبعة تاوختز قد وصل إليها نقد هؤلاء المبشرين المستشرقين لطبعة فلوجل، فلماذا لم يتمّ مراجعة طبعة فلوجل بإصلاح الحرف المطبوعي المستعمل وبالاستفادة من عمل مشترك بين المطبعة وخبرة

1- Smitskamp, R., "Flügel's Koran Edition", in 'alam al-Kutub, 1994, pp.533-5; Dagmar Glass, Malta, Beirut, Leipzig and Beirut Again-Eli Smith, the American Syria Mission and the Spread of Arabic Typography, Beirut, 1998, pp.19-25.

2- Lorck, Carl B., Leipzig, 1883. Vol. II, p.338: «Auf Veranlassung der Amerikanischen Mission in Syrien wurde eine neue Arabische Schrift geschnitten, die sich dem Geschmack der Orientalen gut anpasst.»

3- Glass, D., 1998, p.23.

المبشرين الأمريكيين؟ وتعود أهمية هذا السؤال إلى حقيقة أن عدداً كبيراً من العلماء المسلمين والخطاطين قد رفضوا طبعة فلوجل لما رأوا فيه من رداءة الطباعة مقارنة بالذي اعتادوه من جودة خط مخطوطات المصاحف إجمالاً. إن ملاحظات لورك السالفة تؤكد أن النقد كان معلوماً للجميع وأنه كان على المطبعة القيام بإصلاح الحرف المطبوعي؛ ولكن ذلك لم يتم. لماذا إذن لم يتم استعمال الحروف المطبوعية الجديدة والمطورة لطبعات لاحقة من طبعة فلوجل؟ ألم يكن بالإمكان التقليل من رفض العلماء؛ (أي: «المشركيين» حسب تعبير لورك) لطبعة فلوجل لو تمَّ إصلاح الحرف المطبوعي؟ ويمكننا أن نعثر على إجابة على هذا السؤال إذا نظرنا في أمرين اثنين:

أولاً: بعد وفاة تاوخنتر في عام 1836، تسلم ابنه كارل كرستوف فيليب تاوخنتر (1798 - 1884) Karl Christoph Philipp Tauchnitz إدارة المطبعة حتى 1864 ثم قام ببيعها لأسباب غير معلومة¹. ويبدو أن الشراكة التي كانت بين فلوجل وأبيه لم تنتقل إليه بعد وفاة الأب وبالتالي انتهى مشروع فلوجل - تاوخنتر بوفاة الأب².

ثانياً: إن طباعة النصوص الشرقية، بما في ذلك النصوص العربية، كانت تتم من خلال شراكة وثيقة بين المطبعة والباحث في النصوص العربية (أي المستشرق). كان على أي صاحب مطبعة أن يتعاون بشكلٍ وثيق مع المتخصص ليس فقط عن طريق الاستشارة بل عن طريق العمل المشترك. وبسبب غياب من يخلف فلوجل في مركزه الجامعي في لايبزغ وفي مشروعه بات أي تطوير لطبعته أمراً بعيد المنال فبقيت طبعته على حالها³.

وشيئاً فشيئاً بدأ الشك في علمية طبعة فلوجل ينتشر بين الباحثين

1- Lorck, C., 1883, p.338.

2- لاحظ أن تاوخنتر الأب مات سنة 1836، أي سنتين بعد صدور الطبعة الأولى من طبعة فلوجل عام 1834.

3- من الأبحاث التي اهتمت بالدراسات العربية في مدينة لايبزغ في القرن التاسع عشر: Preissler, H., "Arabistik in Leipzig (vom 18. Jahrhundert bis zur Mitte des 20. Jahrhunderts)", in *Wissenschaftliche Zeitschrift, Karl-Marx - Universität. Gesellschafts-und Sprachwissenschaftliche Reihe.* 1979 (17). pp.87-105.

الغربيين، لا سيما بعد شيوع طبعة الملك فؤاد (طبعة القاهرة) في عشرينيات القرن العشرين. حتى ذلك الوقت، كان جل الباحثين الغربيين يعودون إلى طبعة فلوجل، نظراً لأنها كانت الطبعة التي في متناول الجميع، فاعتمد عليها آرثر ج. آربري Arthur J. Arberry لترجمته الإنجليزية للقرآن، كما أحال إليها العديد من الدارسين من أمثال يوليوس فلهاوزن Julius Wellhausen وإجناتس غولدتزيهر Ignaz Goldziher ورتشارد بل Richard Bell. في الفقرة القادمة، سنتناول السياقات التي ظهرت فيها طبعة القاهرة والمزايا التي تحلت بها والتي جعلتها تتفوق على طبعة فلوجل، ولكن قبل

**إنَّ طباعة النصوص
الشرقية، بما في ذلك
النصوص العربية، كانت
تتم من خلال شراكة
وثيقة بين المطبعة
والباحث في النصوص
العربية (أي المستشرق).**

ذلك، يحسن أن نذكر أن مشروعاً علمياً آخر ظهر في ألمانيا في الوقت نفسه وللأهداف نفسها. هذا المشروع هو محاولة إصدار «نصّ محقق» critical edition لنص القرآن الكريم يتجاوز ما قام به فلوجل بأن يضم إليها القراءات القرآنية المحفوظة في كتب القراءات والمخطوطات القرآنية. وقد تصدر لهذا المشروع مستعربان اثنان هما: غوتهلّف برجشترسر Gotthelf Bergsträsser وتلميذه

ومساعده أوتو پرتزل Otto Pretzl في مدينة ميونيخ في الثلاثينيات من القرن العشرين. وقد قام الاثنان بجمع مخطوطات قرآنية وتصويرها ودراسة وتحقيق كتب القراءات وما تعلق بها من كتب اللغة¹ غير أن الموت حال دون تحقيق هدفهم فتوقف العمل على المشروع. وفي الفترة نفسها بدأ بعض المستشرقين الألمان بيلورون تصوراً سلبياً تجاه دراسة القراءات القرآنية مفاده أن التنوع في القراءات لم يحصل نتيجة رواية شفاهية؛ بل بسبب

1 - Bergsträsser, G., "Plan eines Apparatus Criticus zum Koran", *Sitzungsberichte der Bayerischen Akademie der Wissenschaften*, München 1930 (Heft 7), and Pretzl, O., "Die Fortführung des Apparatus Criticus zum Koran". *Sitzungsberichte der Bayerischen Akademie der Wissenschaften*, München 1934 (Heft 5). Jeffery, Arthur, "Progress in the Study of the Qur'an Text", *The Moslem World* (25), 1935, 4-16.



تجارب اللغويين العرب وافترضااتهم بغية إصلاح نصّ القرآن الكريم¹. ولا شكّ أن بروز هذا التصور وشيوعه لاحقاً حال دون دراسة علمية جادة لقراءات القرآن الكريم ومخطوطاته، كما كان يهدف إليه پرتزل وبرجشترسر.

طبعة القاهرة 1923 - 1924

تبيّن دراسات معاصرة أن طباعة المصحف الشريف قد بدأت في مصر قبل طباعة مصحف الملك فؤاد بعقود². ولعل أول طباعة للمصحف هي التي رأت النور في سنة 1890/1308 على يد عالم القراءات وعلوم القرآن رضوان بن محمد المخللاتي (توفي 1893/1311)³. عرفت هذه الطبعة بـ «مصحف المخللاتي»، وقد التزم المخللاتي بالرسم العثماني وأدخل علامات الوقف، كما كان معمولاً به في المصاحف المخطوطة، وقدّم لعمله بمقدمة علمية بين فيها اتباعه لمنهج علماء القراءات كما هو في «كتاب المقنع للداني» و«كتاب التنزيل لأبي داود». ورغم ما امتاز به عمل المخللاتي من محافظة على الرسم العثماني واتباعه لقواعد علم القراءات، إلا أن رداءة الطبعة الحجرية ووجود عدة أخطاء مطبعية جعل الأزهر يتجه نحو تأسيس مشروع هدفه إنتاج نصّ علمي يوافق قواعد علم القراءات والرسم العثماني من غير أخطاء مطبعية، وقد اصطلح على تسمية هذه النشرة للمصحف طبعة القاهرة أو طبعة الملك فؤاد الذي أنجز المشروع تحت رعايته.

1- فقد كتب أوغست فيشر أحد كبار المستعربين الألمان في سنة 1948: «أما بالنسبة للقراءات القرآنية، التي هي في غالبها ليست سوى إصلاحات لغوية للمواضع الصعبة للنص العثماني قام بها الدارسون للقرآن، فقد وقعت المبالغة في الاهتمام بها ودراساتها في العقدين الماضيين تحت تأثير برجشترسر وتلميذه ومساعدته پرتزل، وجفري».

“Von den Koranlesarten, die m. E. groβenteils weiter nichts sind als Emendationsexperimente philologisch geschulter Koran-Forscher an schwierigeren Stellen des ‘othmānischen Koran-Textes, ist in den letzten zwei Jahrzehnten unter dem Einflusse Bergstrābers, seines Schülers und Mitarbeiter Pretzl und Jeffery’s wohl zuviel Aufhebens gemacht worden.” Fischer, A., in: Der Islam (28), 1948, p. 5.

2- Albin, Michael, Printing of the Qur’ān, in: The Encyclopaedia of the Qur’an, Leiden, 2004, Vol. IV, pp. 265-6.

وانظر أيضاً: رضوان أبو الفتوح، تاريخ مطبعة بولاق، القاهرة 1953، 277 - 279.

3- الزركلي، الأعلام، 53/3. ورشيد رضا، المنار، تموز 1909، مجلد 12، 6، ص 423.

يقدم عالم القراءات المصري الشهير عبد الفتاح القاضي في كتابه حول تاريخ المصحف عرضاً مهماً لعمل اللجنة التي وُكِّلَ إليها إنتاج النص، وهم شيخ المقارئ وقتها محمد علي خلف الحسيني الحداد، وحفني ناصف (مفتش اللغة العربية في وزارة التعليم)، ومصطفى عناني ومحمد إسكندري. وقد اتفقت اللجنة على الالتزام بالرسم العثماني وبقراءة حفص عن عاصم. وكانت النتيجة طبعة حجرية، بخط محمد علي خلف الحسيني الحداد نفسه، توافق الرسم العثماني وعدّ الآيات والتنقيط وفق كتاب «الطراز على ضبط الخراز» للتنسي. وقد وافقت هذه النشرة قراءة حفص عن عاصم، وفصل بين

الآيات وأضيف العدد حسب العد الكوفي. غير أن هذا العمل الذي تعاون في إنجازه أبرز علماء اللغة والقراءات وقتئذ لم يخلُ من بعض القصور والأخطاء فلزمت المراجعة.

في العام التالي، أي 1924، انتخب الأزهر لجنة علمية جديدة لتصحيح عمل لجنة عام 1923. وقد تكونت اللجنة من عبد الفتاح القاضي، ومحمد علي النجار، وعلي محمد الضبّاع وعبد الحلیم البسيوني¹. وقد تعهدت هذه اللجنة بمراجعة الرسم

وعلامات الوقف والابتداء والتشكيل. وكانت النتيجة طبعة حجرية ثانية باتت هي الأم لكل طبعات المصحف التي تلتها في مصر وخارج مصر.

ويعدّ اليوم مجمع الملك فهد لطباعة القرآن الكريم، والذي يقع في المدينة المنورة وتأسس في عام 1985، أهم مؤسسة لطباعة المصحف ونشره على نطاق واسع. وقد كان لعبد الفتاح القاضي الذي أشرف على تصحيحات طبعة عام 1924 دور مهم في المرحلة التأسيسية لمجمع الملك فهد، إذ تمّ تعيينه مشرفاً على طباعة مصحف المدينة الواسع الانتشار اليوم. وقد جلب عبد الفتاح القاضي معه عدداً من أفضل علماء مصر من أجل العمل في مصحف المدينة.

1- القاضي، ص 94.

تبيّن دراسات معاصرة أن طباعة المصحف الشريف قد بدأت في مصر قبل طباعة مصحف الملك فؤاد بعقود، ولعل أول طباعة للمصحف هي التي رأت النور في سنة 1890/1308 على يد عالم القراءات وعلوم القرآن رضوان بن محمد المخملاتي.



بالنسبة للمصادر التي اعتمد عليها من أجل إخراج طبعة 1923 - 1924، فقد ذكرتُ بعض أهم مصادر علوم القراءات وكتب عدّ الآيات سالفاً. هذا يعني أن اللجنتين اعتمدتا على كتب متداولة معروفة في علم القراءات والرسم والعد؛ أي أنهم لم يعتمدوا بشكل رئيس على المخطوطات القرآنية رغم شيوعها ووفرته، بل على علم القراءات الذي يجمع بين العناية بحفظ النصّ في الصدور وحفظه في السطور. وهذا يعني أن طبعة القاهرة - رغم كونها مطبوعة - فإنها قد التزمت بالمنهج المتبع منذ قرون في إنتاج المصحف المخطوط. بل لا نجد في ما كتب حول عمل اللجنتين - وهو قليل - أي إشارة إلى مصحف مخطوط اتفقوا على الرجوع إليه حال اختلافهم (أي بمثابة مصدر). وكما نرى فإن الفروقات المنهجية في عمل لجنة القاهرة وفلوغل تبدو جلية. فبينما اعتمدت نشرة فلوغل على مخطوطات لمصاحف عشر عليها في مكتبات أوروبا من غير تمييز بينها، فإن علماء الأزهر لم يعطوا المصاحف المخطوطة سوى أهمية ثانوية، بل اعتمدوا على الحافظة وعلوم القراءات التي نقلت إليهم مشافهة وعبر الأسانيد. إن هذه الفروقات - بين منهج يعتمد الشواهد النصية المخطوطة أساساً وبين منهج يعتمد العلوم المنقولة مشافهة وتعليماً كأساس لكتابة مصحف جديد -، إن هذه الفروقات تعكس السياقات الثقافية والتكنولوجية التي ظهرت فيها كل طبعة.

إلى أي مدى أثرت الطباعة في علم القراءات؟ وهل أثرت طبعة القاهرة في الطريقة التي تلا فيها المسلمون المصحف بعد الطباعة؟ بالنسبة لعامة المسلمين، يمكن القول: إن معظمهم وقتئذ كانوا إما أميين أو شبه أميين، يعتمدون على وسائل شفوية لنقل المعرفة وحفظها، ومن ثم لا أعتقد أن هذه الطبعة، بمجرد صدورها، قد أثرت في حياتهم الدينية والشعائرية بشكل جذري؛ بل يمكن القول: بأن طباعة المصاحف لم يكن لها أثر ملموس إلا في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين حين بدأت بعض الدول الإسلامية كالسعودية والمغرب وتركيا بنشرها وتوزيعها بشكل كبير. وإذا علمنا أن غالب عامة المسلمين كانوا لا يجيدون قراءة القرآن أصلاً، فإن صلتهم به كانت صلة سمعية، يسمعون تلاوته في الصلوات في المساجد، والشعائر، والموالد

والاحتفالات الدينية. وإذا علمنا أيضاً أن للرسم العثماني خصوصية لا تعرف إلا بالتعليم وهو غير متوفر عند معظم العامة (وهو ليس مساوٍ لفك الخط) علمنا أن معظمهم لم يكن بمقدورهم قراءة هذا المصحف المطبوع.

وقد صاحبت شيوع طبعات المصاحف وظهور نصّ ذي شكل موحد وفي تناول الجميع ممارسات جديدة في القراءة والتلاوة. إذ ما كان حكرًا على المتعلمين من القراء صار بوسع العامة من الأميين، رجالاً ونساءً، وهو ما أتاح لهم فرصة أكبر لمحو أميتهم. غير أن عملية محو الأمية هذه اتخذت مساراً معيناً؛ إذ بما أن القرآن الكريم هو نصّ شفهي بالأساس، فقد أدى نشره الواسع عن طريق الطباعة تأكيداً وتعزيزاً للجانب الشفاهي له، وهو ما يمكن التذليل عليه من خلال ملاحظة كثرة عدد قراء القرآن الكريم في مصر وقتئذٍ.

صاحبت شيوع طبعات المصاحف وظهور نصّ ذي شكل موحد وفي تناول الجميع ممارسات جديدة في القراءة والتلاوة، إذ ما كان حكرًا على المتعلمين من القراء صار بوسع العامة من الأميين، رجالاً ونساءً.

وقد أصبح هذا الأمر أكثر أهمية بسبب قدرتنا على استعادة المقروء عن طريق أدوات الحفظ الصوتية المتنوعة. لدينا تسجيل صوتي يتضمن مقابلة مع شيخ عموم المقارئ المصرية محمود خليل الحصري (توفي 1980) بإذاعة القرآن

الكريم السعودية¹. وفي معرض جوابه عن سؤال حول الدافع وراء مشروع «المصحف المرتل» الذي كان له دور أساسي في العمل فيه، قال: إنه لما انتشر مصحف الملك فؤاد المطبوع في مصر بشكلٍ غير مسبوق فانتشر في بلاد إسلامية كثيرة لم يكن فيها من يجيد قراءة القرآن لعدم معرفتهم برسمه وقواعد تجويده وضبط الوقوف؛ إذ بات المصحف متوفراً بشكلٍ كبيرٍ ولكن لم

1- يمكن الاستماع للمقابلة على الموقع: www.qquran.com، انظر: قسم «المقابلات». للأسف فإن المقابلة غير مؤرخة ولكنها بالطبع قبل 1980، سنة وفاة الحصري. (تاريخ الزيارة: 28 أكتوبر 2014) ينبغي أن نذكر أن أول تسجيل لتلاوة قرآنية على الإذاعة المصرية كانت لتلاوة الشيخ محمد رفعت سنة 1934، ولكنه لم يسجل تلاوة كاملة للقرآن. إن الشيخ الحصري هو أول من تمت تسجيل تلاوته كاملة من خلال مشروع «المصحف المرتل».

يكن يوازي هذه الوفرة من يستطيع قراءته. فكان الحل إنتاج تسجيل مسموع، على أشرطة مغناطيسية، يصاحب المصحف المطبوع. وقد سمي هذا المشروع القومي الذي أشرف عليه الأزهر «المصحف المرتل». وكان على من يتم تسجيل صوته أن يكون مجازاً له من الأزهر. وقد حقق المشروع نجاحاً باهراً لدرجة أن القاهرة شهدت طفرة في عدد التسجيلات الصوتية للقرآن الكريم. وكانت تكنولوجيا الراديو الحديثة الشيوع وقتئذ أساسية في هذا النجاح. وصدقت المقولة الشهيرة: نزل القرآن في مكة، وقرئ بمصر. وفي نهاية المقابلة يسجل الحصري استياءه مما آل إليه حال التسجيل الصوتي للقرآن الكريم؛ إذ صار كثير ممن ليس لهم تدريب ولا إجازة في التجويد والقراءات ينتجون تسجيلات صوتية من غير ضبط ولا متابعة من الأزهر.

مواطن القصور والخلل في طبعة فلوجل

لم تختلف نظرة العلماء المسلمين والخطاطين والنسّاخ لطبعة فلوجل عموماً عن نظرتهم لعموم المطبوعات العربية القادمة من أوروبا؛ نظرة يختلط فيها الانبهار بالشك¹. إن الطباعة بما تضمنته من إحداث طريقة جديدة في نقل النصوص وحفظها وقراءتها، كل ذلك مثل تهديداً لمؤسسات العلم التقليدية ووسائل التعليم فيها. وكان هذا الموقف مفهوماً خصوصاً إذا علمنا أن معظم الطباعات الأوروبية الأولى للنصوص العربية - وخصوصاً القرآن الكريم - كانت تتخللها أخطاء كثيرة وكانت بعيدة عن الأساليب الجمالية في كتابة المصحف. غير أن أهم ما جعل العلماء والنسّاخ وغيرهم يعارضون طباعة النصوص الدينية، وخصوصاً المصحف الشريف، هو إدراكهم أن الطباعة ستهدد الأسس التي قامت عليها الطريقة المتبعة آنذاك في التعليم، وهي طريقة تتسم بالعلاقة الشخصية والقريبة بين اثنين: هما الشيخ والطالب. إذ كانت تعتبر هذه العلاقة الشخصية هي الطريقة المثلى والأوثق لنقل المعرفة وحفظها. يقول المؤرخ فرانسيس روبنسن: «إن الطباعة، بما هي

1- للمزيد حول النقاش بشأن موقف العلماء من تكنولوجيا الطباعة، انظر: دراسة محمد غالي: Ghaly "The Interplay of Technology and Sacredness in Islam".

تكثر للنصوص من غير وجهة، ضربت في صميم نظام نقل المعرفة من شخص إلى شخص، وبالتالي ضربت في صميم السلطة العلمية في الإسلام¹. وهذا إجمالاً ما وقع؛ إذ ساهمت الطباعة في الانهيار التدريجي لسلطة بعض المؤسسات العلمية العريقة وأتاحت لظهور حركات تصحيحية وإصلاحية، خرجت أحياناً من تلك المؤسسات وأحياناً من خارجها.

من بين الانتقادات التي وجهها العلماء المسلمون لطبعة فلوجل هو طريقة عدّه للآيات². وقد اتبع فلوجل ما وجده في طبعة هنكلمن إجمالاً، والذي لم يتبع قراءة معينة ولا نظام عدّ معين³. عدّ الآيات؛ أي تحديد نهايتها، قضية ذات أهمية

لم تختلف نظرة العلماء المسلمين والخطاطين والنسّاخ لطبعة فلوجل عموماً عن نظرتهم لعموم المطبوعات العربية القادمة من أوروبا؛ نظرة يختلط فيها الانبهار بالشك.

بالغة لما يترتب عليها من أمور تعبدية وتفسيرية وجمالية كما هو معلوم. وقد قام الباحث أرنه أمبروز Arne Ambros بعقد مقارنة بين طبعة فلوجل وطبعة القاهرة فيما يتعلق بعدّ الآيات⁴. ولتوضيح الأمر، نأخذ المثال التالي: تجعل طبعة فلوجل الآية رقم 31 من سورة المدثر، وهي آية طويلة بالمقارنة بالآيات القصيرة في سياقها، تجعل الآية ثلاث آيات، بينما تبقىها طبعة القاهرة آية واحدة مراعاة للفاصلة بغض النظر عن طولها. ويعني هذا أن الفاصلة معيار أساسي لتحديد نهاية الآية في نظام العدّ الذي اتبعه العلماء الذين كتبوا مصحف القاهرة. خلافاً لذلك فقد أهمل فلوجل الفاصلة إجمالاً⁵.

1- Francis Robinson: "Printing, by multiplying texts willy-nilly, struck right at the heart of person to person transmission of knowledge; it struck right at the heart of Islamic authority". Robinson, "Technology and Religious Change," 239.

2- انظر مثلاً: الانتقادات التي ذكرها رشيد رضا، المنار، ج 9، يونيو، 1906، ص 369 - 384.

3- انظر: دراسة بوبتسين 5-114، "Von Venice to Cairo"، Bobzin.

4- Ambros, Arne, "Die Divergenzen zwischen den Flügel- und dem Azhar-Koran", *Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes*, Wien, 1988 (78), pp.9-21.

5- Bergsträsser, G., 1932, 12-13. "die Muslims aber gebrauchen ihre Zählung, und es ist nicht zu erwarten, dass sie zu gunsten einer falschen europäischen auf sie verzichten sollten. Entgehen werden wir also der kufischen Zählung auf die Dauer Kaum».



بالإضافة إلى طريقته في عدّ الآيات وتحديد نهاياتها، فقد انتقد فلوجل لخطئه بين القراءات القرآنية المتبعة من غير معايير مضبوطة ولوجود أكثر من قراءة في مصحفه. إن ما قام به فلوجل من خلط بين القراءات على هذا النحو يدلُّ على قلة علمه بعلم القراءات وعلى انحيازه للشواهد النصية المكتوبة (أي المخطوطات المتوفرة لديه). ويضاف أيضاً أن طبعة فلوجل لم تتبع قواعد الرسم العثماني¹.

ويحسن بنا أن نقف على ما سجّله المستشرق الألماني برجشترسر Bergsträsser السالف الذكر حول تجربة له أثناء زيارته لمصر في أواخر العشرينيات من القرن العشرين². وكتب برجشترسر هذا التقرير الذي أسماه «قراءة القرآن في القاهرة» Koranlesung in Kairo بعد عودته من زيارة قصيرة له إلى القاهرة من نوفمبر 1929 حتى يناير 1930، وكان الدافع وراء زيارته إيمانه بأن الممارسة العلمية الحية لعلوم القرآن والقراءات ستوضح له كثيراً مما استغلق عليه في الكتب التي بين يديه. ويحكي لنا برجشترسر أنه أثناء تنقله أوقف عند نقطة تفتيش دورية حيث تمت مصادرة طبعة فلوجل التي كانت بحوزته (والتي كانت عليها تعليقات خطية من برجشترسر نفسه) لغرض فحصها. ويذكر برجشترسر أنه بعد محاولات عديدة لاستعادة نسخته تمت إحالته إلى شيخ المقارئ المصرية وقتئذٍ الحدّاد، والذي كان رئيس اللجنة العلمية التي وكل إليها إنتاج مصحف القاهرة كما أسلفنا. في مكتبه، أخبر الحدّاد برجشترسر أنه قد قرر إعادة النسخة إليه بناءً على تقرير أعده مفتش في الأزهر. وقد نشر برجشترسر هذا التقرير كاملاً في مقاله وذكر أن المفتش وجد عيوباً ثلاثة في طبعة فلوجل، هي: عدم موافقته للرسم العثماني، احتواؤه على أخطاء إملائية، واحتواؤه على أخطاء في عدّ الآيات. ومن المثير للانتباه أن المفتش الذي فحص نسخة طبعة فلوجل التي كانت مع برجشترسر لاحظ أن التعليقات التي كانت بالعربية وبلغات أجنبية على هامش النص تدلُّ على أن النسخة كانت تستعمل لغايات تعليمية (أي مذكرة تفسيرية) وليست

Bergsträsser, G., 1932. p.12-13.

-1

Bergstässer, Gotthelf, "Koranlesung in Kairo", in *Der Islam*, 1932 (20).

-2

للتلاوة. وفي نهاية الأمر أعيدت النسخة إلى برجشترسر لأنها كانت تستعمل من أجل دراسته الخاصة¹. إن حكاية برجشترسر لا تعكس نظرة العلماء المسلمين إلى طبعة فلوجل وغيرها من الطبعات الأوروبية فحسب، بل توضح أيضاً كيف تلقوها. فرغم الأخطاء التي لاحظوها وإخلالها بالرسم العثماني ونظام العدّ، فإنه لم يتم رفض الطبعة مطلقاً، ولا اعتبرت تحريفاً مقصوداً، ولكن - وهنا بيت القصيد - وجدت الطبعة حاضناً لها في الطريقة التقليدية المتبعة في تصنيف المخطوطات إلى مخطوطات مصححة (مبيضة)، ومذكرات تفسيرية، ونسخ أولية (مسودة)، والأخيران يتميزان عن الأول لجهة عرضتهم للخطأ والتصويب. أدرجت طبعة فلوجل في المساحة بين مذكرة تفسيرية ومسودة أولية.

إنَّ ما قام به فلوجل من
خلط بين القراءات يدلُّ
على قلة علمه بعلم
القراءات وعلى انجيازه
للشواهد النصيَّة المكتوبة
(أي المخطوطات
المتوفرة لديه).

إن مقالة برجشترسر «قراءة القرآن في القاهرة» Koranlesung in Kairo والتي نشرها عام 1932 وضمّنها ملاحظات مهمة حول علم القراءات ومصحف القاهرة والعلماء الذين التقى بهم وما دار بينه وبينهم لهي مقالة مهمة جداً وجديرة بالعناية. فقد أطرى برجشترسر جهود العلماء الذين أشرفوا على مصحف القاهرة أيما إطرأ، بل ذهب إلى معاتبة زملائه الأوروبيين الذين راموا القيام بمثل هذا الصنيع ولم يتوفر لهم من المعارف ما توفر لهؤلاء العلماء².

1- Bergsträsser, G., 1932. p. 21-23.

2- Bergsträsser: «...er [Cairo edition] ist ein Dokument für den überraschend hohen gegenwärtigen Stand der ägyptischen Koranlesungswissenschaft. Fast möchte man so weit gehen zu behaupten, dass nur Geist des 'ilm al-qirā'āt eine solche Ausgabe schaffen konnte: alle europäische philologische Akribie und Sorgfalt des Kollationierens hätte kaum diese fast absolute Korrektheit erreichen zu können, zu der lebenslang gepflegte gedächtnismässige Beherrschung aller Einzelheiten und religiöse Andacht zum kleinsten die ägyptischen Koranglehrten befähigt haben.» Bergsträsser, G., 1932. p. 10-11.

Bergsträsser's colleague, Otto Pretzl: «Die mit ungemein grosser Sorgfalt hergestellte Ausgabe ist eine vom wissenschaftlichen Standpunkt aus erstaunliche Leistung orientalischer Koranglehrter.» Geschichte des Qorāns III: Die Geschichte des Korantexts, Leipzig, 1909-38, pp. 273-4.

طباعة المصحف وصناعة الفهارس

لن نكون منصفين إذا لم نتطرق إلى الفهرس الذي وضعه فلوجل لأيات ومفردات القرآن الكريم والذي أسماه Concordantiae Corani Arabicae ووضع له اسماً بالعربية هو «نجوم الفرقان في أطراف القرآن»، ونشر في عام 1842. فبالرغم من انتقاد كثير من العلماء المسلمين لطبعة فلوجل للمصحف، كما أسلفنا، فقد رحب هؤلاء العلماء أنفسهم أيضاً بصنيعه في فهرسه. بل دفع الاهتمام بصنيع فلوجل في معجمه بالبعض إلى محاكاته، كمحمد فؤاد عبد الباقي الذي وضع «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، والذي نشر عام 1939. حتى ذلك التاريخ لم يقم العلماء بعمل معجم لألفاظ القرآن الكريم على الرغم من شيوع ظاهرة المعاجم لألفاظ الحديث الشريف. وقد لا يكون هذا بالمستغرب في سياق علمي كان حفظ القرآن الكريم ومعرفة ألفاظه وقراءاته شرطاً من شروط العلم. لاحظ محمد فؤاد عبد الباقي فوائد هذا المعجم المخصص لألفاظ القرآن الكريم وقام بعمل معجم على منوال معجم فلوجل ولكن مراعيّاً عد الآيات حسب طبعة القاهرة الحديثة النشر. فنجده في مقدمته للمعجم يثني على صنيع فلوجل ولكن يتبعه بذكر نقده له¹. فقد ذكر أولاً، أن عدّ الآيات عند فلوجل لا يتبع أي نظام معروف في كتب القراءات والعدّ. وثانياً، إن فلوجل يخلط كثيراً بين جذور المفردات (ويضرب لذلك مثلاً هو اعتباره جذر كلمة «فاستبقوا») هو: ب - ق - ي بينما الصواب هو: س - ب - ق. ويذكر عبد الباقي نحو 40 خطأ من هذا النوع. ثالثاً، يضع عبد الباقي في جداوله المفصلة اسم السورة، ويشير بحرف الكاف أو الميم إذا كانت مكية أو مدنية، ويذكر ترتيب نزولها والمقطع المراد من الآية.

1- يقول محمد فؤاد عبد الباقي: «وإذا كان خير ما ألف وأكثره استيعاباً في هذا الفن، دون منازع ولا معارض، هو كتاب «نجوم الفرقان في أطراف القرآن» لمؤلفه المستشرق فلوجل الألماني، الذي طبع لأول مرة عام 1842 ميلادية، فقد اعتضدت به وجعلته أساساً لمعجمي»، من مقدمته للمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 5.

ملاحظات ختامية

لقد حاولت في هذا البحث أن أذكر أهم الفروق بين طبعة فلوجل التي نشرها عام 1834 وطبعة القاهرة التي نشرت في عامي 1923 - 1924؛ وقد وجدت أن بعض هذه الفروق تعود إلى اعتبارات ذاتية في النصوص نفسها بينما تعود اعتبارات أخرى إلى تاريخ تلقيها. وقد لاحظنا أن «تحقيق» النص و«نشره» قد عَنَيَا أمرين مختلفين في السياقين: بين سياق تحتل فيه الطباعة مكانة رئيسية في نشر المعارف وحفظها، وسياق

إنَّ ما قام به فلوجل من طباعة النص القرآني كاملاً وبجهم معقول وسعر مقبول قد أدى دوراً مهماً في نمو الدراسات القرآنية في أوروبا، فاعتمدت غالبية الترجمات الأوروبية للقرآن الكريم على طبعة فلوجل.

ما زال النص المخطوط هو الأساس في تلك العملية. ولقد حاولت أن أكشف أيضاً عن شبكات تبادل الخبرات بين المطبعيين والمبشرين، وبين المستشرقين والعلماء المسلمين، وما تخلل ذلك من مواقف فكرية.

فخلافاً لطبعة فلوجل التي اعتمدت الطباعة بالحروف المستقلة المتحركة (stereotype)، كانت طبعة القاهرة طبعة حجرية تعتمد على النص المخطوط. وإن هذا الأمر ما زال متبعاً

في طباعة المصحف إذ يعتمد التصوير والطباعة الحجرية، وبالتالي تبقى الكتابة باليد هي الأساس والطباعة ما هي إلا تصوير لذلك النص المخطوط باليد. ونظراً إلى شكَّ العلماء والخطاطين في قدرة الحرف المطبعي المتحرك (حروف غوتنبورغ) على الوفاء بتقاليد الخط العربي وخصوصاً بالرسم العثماني، فإنهم فضلوا استعمال الطباعة الحجرية - ولاحقاً التصوير الفوتوغرافي - نظراً إلى كونها ليست تتجاوزاً للمصحف المخطوط. وقد يكون هذا هو ما يفسر نجاح مصحف القاهرة ورواجه في كثير من بلاد العالم.

إن ما قام به فلوجل من طباعة النص القرآني كاملاً وبجهم معقول

وسعر مقبول قد أدى دوراً مهماً في نمو الدراسات القرآنية في أوروبا. فاعتمدت غالبية الترجمات الأوروبية للقرآن الكريم على طبعة فلوجل، كما اعتمد كثير من المستعربين على خطوط تاوختنز في أعمالهم¹. ولا ينبغي أن نغفل السياق الثقافي العام الذي ظهرت فيها الطبعتان. فقد كانت طبعة فلوجل واحدة من بين طبعات كثيرة لكتب دينية نشرت خلال القرن التاسع عشر. ولعل أشهرها مشروع ماكس مولر Max Müller الشهير بسلسلة «الكتب المقدسة من الشرق» Sacred Books of the East، التي ظهرت في حوالى منتصف القرن التاسع عشر، في ذروة الاهتمام بالأديان غير المسيحية. سعى فلوجل - كمولر - إلى طباعة القرآن لتسهيل الحصول على النص العربي الأصلي. وكان المستفيد الأول من طبعة فلوجل هم المستشرقون واللاهوتيون الذين لهم دراية باللغة العربية واهتمام بدراسة مباشرة للنص الأصلي من غير وساطة الترجمة - وهو مؤشر مهم لمدى أهمية الدراسات القرآنية في أوروبا وقتئذ.

إن لطباعة المصحف في القاهرة ظروفًا مختلفة عن ظروف طباعته في ألمانيا منتصف القرن التاسع عشر. أولاً، إن زيادة عدد القراء لم تكن هي الغاية من طباعة المصحف - على الأقل لم يكن هذا هو الهدف المرجو في البداية، إذ لم تعتبر الطباعة وسيلة مشروعة لنشر النص بشكلٍ واسعٍ. على العكس من ذلك، شاع الرأي بأن طباعة المصحف بما هو نصّ متلوّ بالأساس وله رسم معين سيولد مشاكل لا حصر لها. ويرى كاتب هذه السطور أن مصحف القاهرة كان عملاً منتظراً ومتوقّعاً لمواكبة المتغيرات التكنولوجية التي كان العالم العربي يشهدها في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. فاللجنة التي أشرفت على مصحف القاهرة ومراجعته ليست نادرة في تاريخ كتابة المصحف. وإن منهج علوم القراءات بقي هو الأساس في ضبط النصّ وتوثيقه. وإن القراء - وإن ازداد عددهم -

Bobzin, "From Venice to Cairo", 170.

استمروا في القراءة والإقراء بالطريقة نفسها. وإن الرسم العثماني بقي أساسياً في كتابة المصحف فلم يُستغنى عنه بإملاء جديد أو بحروف مطبعية جديدة. وقد يكون سر نجاح مصحف القاهرة هو اعتماده على تكنولوجيا الطباعة الحجرية التي ضمنت لمسالك كتابة المصحف المخطوط التقليدية ومناهج قراءته أن تستمر.

